

حفلة تكريم

وجه حضرة صاحب العزة صادق جوهر بك ناظر دار العلوم، وهيته التدريس بها، الدعوة لحضور حفلة الشاي التي أقيمت بفناء الدار في تمام الساعة السادسة بعد ظهر يوم السبت ٢٦ من يونية سنة ١٩٣٧، لتكريم حضرات الأساتذة: الشيخ محمود أحمد البطاراوى، وأحمد التونى افندى، والشيخ على حسنين؛ لمناسبة اعتزالهم الخدمة.

وقد أم الدار أساتذتها، ونخبة من خريجها، وطائفة من كرام المدعوين، وتوسط الحفل حضرة صاحب العزة ناظر دار العلوم، وإلى جانبه المحتفل بهم، وحوطهم المدعوون من الزملاء والأصدقاء. ثم قدم الشاي والحلوى، وأديرت المرطبات المثلجة؛ وأخذ الحاضرون يتجاذبون أطراف الحديث، وقد صفا الجو، ورق الهواء، وانحدرت الشمس إلى مخبئها؛ وأظلت الجميع تلك الأشجار الباسقة الوارقة الظلال، التي شاهدها جيل من أبناء دار العلوم في مبدأ غرسها، حين كانت دانية الغصون، ثم مرت عليها السنون فسمت في فناء الدار، تطل على أبناء دار العلوم، الذين نعموا بظلمها في إبان نموها.

وحين شرب الحاضرون الشاي هنئنا، قام حضرة صاحب العزة صادق بك جوهر، فرحب بالحاضرين، وشكرهم تلييتهم الدعوة؛ ثم هنا الأساتذة الثلاثة بما لهم من الماضى المجيد، الحافل بالجد والإخلاص في العمل، وبما أحرزوا من مكانة في القلوب، وقال: إن اعتزالهم الخدمة إنما هو انتقال من الجو المحدود إلى الحياة العامة، حيث يتسع المجال لجهودهم الشاملة في خدمة اللغة والأدب. ثم شكر الحاضرين، وتمنى للمحتفل بهم حياة سعيدة طيبة.

ثم قام الأستاذ زكى المهندس، أستاذ التربية بدار العلوم فقال:
إني لا أكاد أصدق أن ما أرى من تكريم هؤلاء الفرسان الثلاثة هو لمناسبة
(٨ صحيفة دار العلوم)

إحالتهم إلى المعاش . وذلك أن عهدنا بمن يحالون إليه أن يتجلى على وجوههم عراك الزمن : من انحناء الظهر ، وتهدم الجسم ، ومظاهر الضعف وكبر السن . ولكنى أرى في فرساننا الثلاثة غير ذلك ، أرى أجساماً قوية ، وقلوباً فتيّة ، وصحة تترقق في مجاهم ، وهمّة دونها همّة الشباب ، فيحملنى ذلك على الشك في أنهم بلغوا السن القانونية حقاً ، وأنهم قد أحيوا إلى المعاش لبلوغهم سن الستين .

وإني أهنئهم على خروجهم من الخدمة في صحة سابعة ، وأسأل الله أن يديمها عليهم . وبقينى أنهم إذ يغادرون العمل الرسمى في التعليم ، إنما يخرجون من دائرة محدودة ، إلى دائرة واسعة ؛ حيث يزداد نفعهم ، وتثمر جهودهم ، وتجنّى دار العلوم وأبنائها من تجاربهم أوسع الثمرات ، وأسأل الله لهم حياة طويلة عريضة . على حد ما كان يقول ابن سينا ، وهو : اللهم إني لأسألك حياة طويلة ، بل حياة عريضة .

ثم تمنى حضرته للمحتفل بهم صحة وافرة ، وحياة هنيئة .

ثم قام الأستاذ أحمد يوسف نجاتي ، أستاذ الادب بدار العلوم ، فألقى الكلمة الآتية :

رأيت من بعض إخوانى ميلاً إلى أن ألقى في هذه الحفلة الاخوية كلمة ، فلم أجد بدءاً من نلبية الطلب ، وإني لأرجو أن أكون ترجماناً صادقاً ، معبراً عن عواطفهم وشعورهم ، ولساناً ناطقاً بما تكنه أنفسهم ، فأقول :

ودعمت دار العلوم في سنوات متفرقة مضت ، كثيراً من أساتذتنا الذين أدوا حقوقها المجيدة بها ، وشكرت لهم حميد سعيهم ، وحسن بلائهم ، وعظيم إخلاصهم ، ولكن لا أذكر أن اتفق في حياتها الدراسية الطويلة - على وفرة نتاجها ، وجيل ثمراتها - أن ودعت مرة واحدة أعلاماً ثلاثة ، سعد عام واحد مولدهم ثلاثتهم جميعاً فيه . بل إن دار العلوم لتودع اليوم من أساتذتها الكرام أقانيم قدسية ثلاثة يؤلفون مثلثاً تساوت أضلاعه قساوت زواياه ، ثم تحول إلى دائرة منتظمة لا يدري أين طرفاها ، فأفضلهم : الأستاذ الجليل أحمد التوفى ، لا ، بل

أفضلهم: الأستاذ العظيم محمود البطاروى، لا بل أفضلهم: الأستاذ النبيل على حسين عبد الوهاب الأسيوطى، لا بل كلهم أفضلهم وخيرهم جميعهم - وقد يعترضون على بأن أفعل التفضيل بعض ما يضاف إليه، وبأن الشئ لا يفضل على نفسه، فأقول: إنهم كل واحد وحدة ملتزمة، كل فرد منهم بعضها، وإن فى كل منهم مزايا شتى، ومناقب مختلفة، وما أثر جمعة، يختلف معها الاعتبار فيصح التفضيل.

من تلق منهم نقل: لاقت سيدهم مثل النجوم التى يسرى بها السارى نعم أيها السادة اليوم وفى دينه لداخل دار العلوم ثلاثة من أكرم أبنائها عليها، وأكثرهم برأباها، وأشدهم غيرة على رفيع منزلتها، وحرصا على المزيد من تقدمها ونهضتها، وعملا على ما يسمو بقدرها ويعلى شأنها، حتى يبلغ السماء مجددا وسناوذا، وما منهم إلا من هو فى هيكلها الأعظم بناء متين الأركان، محكم البنيان، موثق الأساس، قوى الدعامة. وكأنى بها تنشد نفسها، فى أسف تمازجه غبطة وابتسامة عذبة تشوبها لوعة:

ولو كان أمرى واحدا لاحتملته وإكثته فرد، وثان، وثالث.

وستشعر دار العلوم بهذا الفراغ الذى يخلفونه، فيطول جهدها حتى تملأه، وستحس حاجتها شديدة إلى سد تلك الثغرة. وبناء هذه الفرجة، وإن كان يهون وجدها من توديعها إياهم، أن قلوبهم معها، وميلهم إليها، وأن آثار مجهودهم لا تزال ماثلة بها، وأنهم يمدونها، بروح من عندهم، وأنهم يستقبلون فى الحياة الجديدة، الحرة المديدة، الهنيئة السعيدة، الطيبة الرغيدة، عهدا حرا، سيطول باذن الله أمده، ويكثره خيره ومدده، ويتضاعف بره ورفده، ويستأنفون حياة راضية، حرة طليقة من كل قيد، يملكون بها الترفيه عن أنفسهم، ومنحها حظا من الراحة المجدية، تستجم فيها القوى؛ لمواصلة ما ألفوه من العمل فى خدمة الأمة، بل فى نفع المجتمع العام، فلا يزال فيهم، مع حكمة الشيوخ ومعرفتهم، نشاط الشباب وحماستهم، ومع عقول الكبار وتجاربهم، قدرة الفتیان وطموحهم، وكل منهم تمتع بعقل ناضج قوى، وقلب نابض قتي، وصحة نرجو الله أن يسبغ عليهم بردها ضافى الذبول، سابغ الأطراف، وأن يرفلوا فى حللها مرنحة الأعطاف،

ولكل منهم ثقة عظيمة بالنفس، متينة العرى، قامت على أساس رصين من الخلق الكريم، والعقل الحكيم، والدين القويم، ومن إجماع العارفين على فضلهم وتقدمهم، وقدر كرام الناس إياهم حق قدرهم، وسيضيفون إلى سجل عمرهم الصالح الخالد، الذى ازدانت صفحاته بجلال الأعمال، وعظيم الآثار، صحائف مجد أخرى كثيرة، يخدمون بها فى حرية تامة، وانطلاق من قيود الوظائف، وطنهم الكريم ومعهدهم العزيز، ودينهم القويم، ولغته الشريفة، بما يعهده الناس فيهم: من علم جم، وذكاء نادر، وأدب غزير، ودين متين، وخلق عظيم، وتجربة حكيمة، وخبرة علمية، وإخلاص يزين كل عمل، ويشربه كل جهد.

هذا. ولقد بدا لى أن أشبه كل واحد منهم بمن يناسبه من خول الساف الصالح الأقدمين، وأساطين العلوم والمعارف الماضين، فتنازع الأستاذ التوفى جماعة من أكابرهم بحيث أن كان جميعهم من أبناء فارس، أبوا إلا أن يكون هذا المصرى العربى خلاصة طائفة نجية منهم، أومزجاً صالحاً مؤلفاً من عناصرهم، وهم: شيخ اللغة سيديو به عمرو بن عثمان. والإمام الأعظم أبو حنيفة النعمان، وفخر الدين الرازى، وجاد الله الزحشرى، والرئيس العليم أبو على بن سينا، والأستاذ الرئيس ابن العميد، فسلمت لهم وقلت: كرامة ونعمى عين، لوتعلق العلم بأهداب الثريا لتناوله رجال من فارس. وأما الأستاذ البطراوى فاتفق عليه العجم والعرب، كما اجتمع فيه العلم والأدب، وألف بين الدين والسميح، والفكاهة الحلوة، والطرب، فكان أستاذاً لأساتذة: الخليل بن أحمد، وأحد الحمتادين: حماد الراوية أو حماد عجرد؛ يمزج معهم الفراء والكسائى، ويضرب معهم بسهم الأدب والرواية أبو الفرج الأصفهاني، تتم جماعتهم أبو نصر الفارابي. وأما الأستاذ على حسنين عبد الوهاب فيخيل بيح... شيخ اللغة والدين، وبقية الأئمة المجتهدين، يأخذ العلم والأدب والدين عن سائر الناس، ولم يبال باختلاف الطوائف والأجناس، فهو أبو موسى الأشعرى، ولكن فى تقوى حذرة، ودين ذى حنكة وحيلة، يضم إليه الإمام الورع أحمد بن حنبل، والراوية الثقة التقي، عبد الملك بن قريش الأصمعى، وأبو العتاهية، يقومه حجة الاسلام أبو حامد الغزالى، يضاف إلى جماعتهم عبد القادر الجرجاني،

والقاضى القاضى عبد الرحيم البيسانى ، ثم هو بعد ذلك الجلال السيوطى . تلك
ظواهر عجيبة تعز على التحليل ، وتستغنى بنصوع أدلتها وبالغ حجتها عن التدليل .
عاشرت ثلاثتهم عشرة طالت وطابت ، فأحدثت العشرة ، وأكبرت الفائدة ،
وأعظمت الثمرة ، ووجدت من إخوانى كلهم إجماعا على رجحانهم ، واتفاقا على
فضلهم ، وثلاثتهم مثلى مخضرمون طويلا ، عاشروا بدار العلوم كثيرا من نظارها
الكرام ، الذين تبوءوا الدار والايمان ، وازدهى بهم ظرفا المكان والزمان ، فخدموها
بسد يد آرائهم ، وعظيم خبرتهم وحكمتهم . وأجمعوا على حسن الثقة بأساتذة اليوم
والإشادة بفضلهم ، جزاهم الله خير الجزاء ، وجزاء الخير .

ولقد كان من يمن الطالع ، وسعد القال ، وحسن الخط ، أن كان يومنا المبارك
هذا فى عهد ناظرها الحالى : ذلکم الرجل الكامل ، والهمام الاينى ، والنقادة الخير ،
المصنفى من أطيب عنصر (وأصدق جوهره) وفى وزارة الأمة الشعبية المحبوبة ،
المؤيدة بإجماع الثقة التامة ، والتى نالت مصر فى عهدها السعيد ، ما كانت تجاهد له ،
وتسعى إلى الحصول عليه ، فى ظل جلالة الملك المحبوب ، زين الشباب ، وقررة عين
مصر ، الذى حل كل قلب ، ودان بولائه كل نسمة من الشعب ، وحسب دار العلوم
بهذه كله قوة وعونا : تستمر بهما سائرة قدما . ظاهرة على الحق ، مؤدية رسالتها
على أكمل وجه ، فإنه كلما تقدمت الأمة فى العلوم والمعارف ، واتسعت دائرة
ثقافتها ، وارتقت آدابها وأفكارها ، زاد شعورها بالحاجة الملحة إلى هذا المعهد
الكریم ، الذى فيه تحيا لغة الكتاب العزيز ، والمدرسة التى بارك الله فى حياتها ،
فأمدت الأمة بالمحامين الاكفاء . وتخرج فيها من ولوا الاعمال المختلفة ، فأبأنواع
كفاية وغناء ، والذين نهضوا باللغة ، وأقالوها من عثرتها ، وأخذوا بضبيعتها ،
وأشرفوا بها على اليفاع ، وجاهدوا بكل قوة ما كان فاشيا فيها من ضعف ، وبذلوا
فى خدمتها ثمين وقتهم ، وكان لهم من عظيم الخبرة ، وقوة المعرفة ، ومن اضطلاعهم
بالادب العربى : قديمه وحديثه ، وتمسكهم من الوسائل القوية التى تنهض بها اللغة
وآدابها وعلومها ، ومن إحاطتهم خبرا بأسرار اللغة وبلاغتها ، ووقوفهم التام على
مناحي القول فيها ، ومن القدرة الكافية على تفهم الادب العربى البليغ فى كل

عصوره ، وعلى الانتفاع به وتعريف الناس قيمته ، ومن تتبعهم لحركات الأدب الحديث ، ووقوفهم على أطواره ، ومن إلمامهم بالقدر الصالح من المعارف والعلوم التي لا بد منها في خندق الأدب ، وجعله مفيداً مثمراً - ما أتاح لهم أن يسايروا الثقافات الجديدة القويمة ، وأن يكونوا في طليعة الأمة مسيرة للزمان ، وعلماء بحاجاته ، وتقدما في الثقافة العربية المصرية خاصة ، والثقافة العامة عامة ، وقياماً على الأدب وتوجيهها له الوجهة النافعة ، وزياداً عن اللغة ، وصدا لغارات أعدائها عنها ، ولها من نصر الله أكبر معين ، وأعز ناصر . ومن الثقة بحضرة صاحب المعالي وزير المعارف الجليل ، ووكيله حضرة صاحب العزة الأستاذ الأديب نعم الوكيل ، ما تم به لأمة الجهاد ، وتكمل به العدة والعتاد ، فتفرغ إلى إمداد الشعب بما تشد حاجته إليه من أدب حي راق صالح ، لا يرتضخ لكتنه ، ولا يتعثر في منته . فيغذى العقول والأفكار ، وينمي الملكات ، وعساها تقوى على عوامل أخرى ، ليس أمرها بأيدي أبنائها ، إذن تكون آثار جهادهم في هذه الناحية الشريفة أقوى وأكثر ، وثمار كدهم وجهدهم أحسن وأطيب ، إن شاء الله . ولا يفوتني قبل ختام كلمتي ، أن أقدم جزيل الشكر ، لحضرات السادة الذين شرفونا بإجابة الدعوة ، وانتظم بهم عقد الحفلة ، وأن أخص بالشكر الجزيل ، والثناء الجميل ، حضرة صاحب العزة محمد فهم بك ، عميد أصدقائنا وإخواننا البررة ، الكرام الخيرة ، نصر الله وجوهم ، وشكر لهم صالح سعيهم . ثم أقول : هنيئاً للفرسان الثلاثة أن سبقوا إخوانهم مجلدين ، وأن فاقوا في الميدان أقرانهم مبرزين ، وهنيئاً لهم ما خلفوه : من أثر يضرع ولا يضيع ، وجهد خصب مريع . وذكر جميل يطيب نشره ، وثناء يتأرج شذاه وعطره . وسعي مشكور ، طوقوا به جيد المعارف فلائد منن ، لا يفكها الملوان ، وبلاء حسن دون لهم سفراً خالدا لا يزال يتلوه لسان الزمان . والله تعالى ، وكرام خلقه ، يشكرون لهم ما أسدوه من مبرات ، ومن أياد غير كانت بها أيامنا مشرقات منيرات . والعاقبة عندنا إن شاء الله تعالى في المسرات .

ثم قام الأستاذ عبد المغنى المنشاوى الأستاذ بدار العلوم فألقى القصيدة الرائعة الآتية :

قصيدة الأستاذ عبد المغنى المنشاوى

المدرس بدار العلوم

دار العلوم ودارة الأخيار حَيَّ حَيَاةَ ثَلَاثَةِ الْأَقْبَارِ
أُطْلِعْتَهُمْ شَرَحَ الشَّبَابِ أَهْلَةً فَسَرَوْا بِدَوْرًا غَيْرَ ذَاتِ سِرَارِ
خَلَعْتَ عَلَى الْوَادِي سَنَا وَمَعَارِفًا بَاتَا هُدًى الْأَبْصَارِ وَالْأَفْكَارِ
نُورُ السَّمَاءِ يَشْعُ فِي نُورِ الرَّبِّي مَا أَرْوَعَ الْأَنْوَارَ فِي الْأَنْوَارِ !
أَرَأَيْتَ قَبْلَهُمْ بِدَوْرًا أَزْمَعْتَ فِي لَيْلِهَا الْأَسْفَارَ فِي الْأَسْفَارِ
بَاتَتْ تُصَعَّدُ فِي سَمَاءِ يَبَانِهَا حَتَّى تَبْدَى اللَّيْلُ ضَحْوَةً نَهَارِ
فَسَلُّوا أَشْعَمَهَا نُشْرَنَ حَبَائِلًا أَأَتَتْ بِدَرٍّ ، أَمْ أَتَتْ بِدَرَارِي ؟
حَتَّى إِذَا وَلَّى السَّرَى حَمْدُوا السَّرَى وَمَضَوْا لِلدَّرْسِ مُعْنَتِ جَبَّارِ
الْأَيْلُ يَطْوِيهِ اقْتِنَاصُ شَوَارِدِ وَالْيَوْمُ يَنْشُرُهُ كِفَاحُ حِوَارِ
يَانَا فِسِينِ عَلَى الْمَعْلَمِ حَظَّهُ حَظُّ الْمَعْلَمِ جَنَّةٌ فِي نَارِ
الْفَارِسِ الْمِغْوَارِ يَقْصُرُ جِهْدُهُ عَنْ تَضْجِيَاتِ مَعْلَمٍ مِغْوَارِ :
فَأَدَاةُ هَذَا سَيْفِهِ ، وَأَدَاةُ ذَا كَدُّ النَّهْيِ وَالسَّمْعِ وَالْأَبْصَارِ
قَتَلَ الْمَعْلَمُ نَفْسَهُ بِوَفَائِهِ وَبِمَا يَرَى فِي عِيهِ مِنْ عَارِ
بِسَوَادِ عَيْنِهِ يَخْطُ صَحَائِفًا شَرَفَتْ بِهِنَّ صَحَائِفُ الْأَبْرَارِ
إِجْزَوْهُ بَعْضَ جَزَائِهِ ؛ فَقَصَّرُ مَنْ يَجْزُ بِذَلِ الرُّوحِ بِالْذِينَارِ
مَنْ يَعْجُزُ الثَّقَلَانِ عَنْ إِنْصَافِهِ يَنْصَفُهُ عَدْلُ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ

زفوا تهانيسكم إلى من ملأكموا
 قد بدلوا عيشاً رزينا خافضاً
 أولى بهتة صحاح بلنوا
 عيشوا مع السنين أخرى غيرها
 واستقبلوا في كل يوم بهجة
 وتذكروا معنى الحياة رضية
 ودعوا لنا عيش الوظيفة إنه
 هتوا الموظف لو يفوز بجلده
 بحبوة الإطلاق بعد إيسار
 من عيش لا أمن ولا استقرار
 زغم الجلال رحابة الأعمار
 في غير ما هم ولا أكار
 فزمانكم آزار في آزار
 وانسوا شروط التمتع والإخبار
 قيد العقول وريقة الأحرار
 إن الوظيفة داؤه المتواري

ثم تعاقب المحتفل بهم فارتجلوا من رصين القول ما عبر عن صادق وجدانهم،
 وعظيم إخلاصهم لدار العلوم ورجالها، وشكروا للحاضرين حفاوتهم بهم،
 وتمنوا لهم أطيب الأمانى.

ooo

وإن جماعة دار العلوم، ونادياها، وصحيفتها، لتقدم للأساتذة الثلاثة، عظيم
 إجلالها وخالص تهنتها، على ما اتصفوا به من مآثر. جمعت القلوب على
 مودتهم، وأطلقت الألسنة بالثناء عليهم، وترجو لهم حياة ناعمة مليئة بالخير
 وجليل الأعمال.

المخطوطة

بفلمهم إسماعيل العربي

المدرس بدي - ريف الثانوية

الفصل الأول

الزوجة

كان حمدان فتي من فتيان تلمسان (إحدى بلاد المغرب) مات أبواه صغيراً .
 فنشأ في أحضان البؤس ، ودرج من حجر الفاقة . ودخل مدرسة الدهر . وهو
 غض الإهاب . وبدأ يعمل بأجر زهيد ولكنه شب مفتول الذراعين ، قوى
 الساعدين ، قد وهب له الله بسطة في جسمه ، ورجحاناً في عقله ؛ فراح يجالدهما
 الحياة ، ويكافح الدهر ، ويدأب في العمل ، وأخذ يدخر من أجره ما زاد
 عن حاجته .

مضت أعوام تلو أعوام ، حتى بلغ حمدان مبلغ الرجال ، وصار بشراً سوياً ؛
 ففكر أن يغير مجرى حياته . ويتخذ له زوجة تشاطره الحياة : تشاركه في النعماء ،
 وتواسيه في البأساء ، ويسكن إليها وقت فراغه ، وتشد أزره في أعماله ، وتجدد
 ما أخلقه الدهر من قوته ، ويملاً بحبها قلبه ، ويطرد بها شبح الوحدة ، وتنجب
 له من البنين والبنات من تقر بهم عيناه ، ويخفف بهم عنه ، وتحلذ ذكراه .

أكد دزمه ؛ فأخذ يرسل سمعه وبصره . وراء فتيات قريته ، اللاتي من
 طبقة ، حتى أنجب بواحدة منهن . امتازت بأسل الخد ، واعتدال القد ، وخلق
 كريم . وقلب سليم ؛ فتقدم إلى ذويها خاطباً ، فأجابوه إلى سؤاله ، وزفت إليه
 زينب ، وانتقلت إلى كوخه . فوجد فيها أدله ، وأفرغ عليها حبه . وابتسمت لهما
 الحياة ، ورفرفت عليهما السعادة ، وامتزجت نفسيهما وصارا كلاً بقاءه

في التركيب ، وعدمه في الانفصام ، وتولد من هذا المركب جزئى أصبح مركز الدائرة ، وقطب المغناطيس ، وأثمرت شجرة الحب ثمراً شهاً طالما اشتاقا إليه ، وبزغ في كوخهما كوكب طالما رصدها ، وولدت عائشة لها . فكانت السمع والبصر والفؤاد .

ما أقصر أيام الصفاء . وإن طال ! نعم فقد عاد حمدان مثقل الرأس ، فآثر الطرف ؛ فهرعت إليه زينب في لفة تسأله : ما بك ؟ فأجابها : ألم خفيف شعرت به . فهدت له وطاقه . واستلقى عليه ، وبسطت فوقه غطاءه ، ثم جلست تتبأ وتسال عن سبب ألمه ؛ فتقول : لعله البرد لم تأخذ منه حذر ك ، أو لعله التعب عما أجهدت به نفسك ، وعما قليل تذهب الراحة ، ويفنيه النوم ، ولم يصدق حديثها ؛ فها قد دالت دولة الظلام . وأسفر الصبح ، وحمدان يتمليل من الحمى ، وقد سرت في جسمه سريان النار في الهشيم ؛ فسقط في يدها ، وتسرب الخوف إلى فؤادها ؛ فأخذت تحنو عليه تتحسس موضع الداء ، وتتعرف موطن العلة ؛ فلا تمس إلا ناراً ذاكية . وجسمها عانيا ؛ فيطبق عليها الفرع . ثم لا تلبث أن تحتمل ابتها ، وتعرض بها إلى سطح الكوخ ، وتقلب وجهها في السماء ، ويلهج لسانها بالدعاء : اللهم إن كنت لا أستحق رحمتك ، فارحم هذه المسكينة التي لم تسى يد ولا لسن ولا إضمار ، ولا تذوق حرارة اليم إنك رؤوف رحيم . ثم تنقلب باكية حتى إذا أطفأت بجمرة حزنها - بل زادت بها انقاداً بدموعها

أجدر بجمرة لوعة إطفائها بالدمع أن تزداد طول وقود - عادت إلى حمدان ، وجلست بجواره لا حول لها ولا قوة ، إلا أن ترسل كلمات ترفه عنه ، وتذكر له أن الشفاء منه جد قريب .

مرت أيام ذاق فيها من صنوف الآلام ، وقاسى من سورة الحمى ، ما نهك جسمه ، وعرق عظمه ، وضعف عن احتمال . فأسلم الروح إلى بارئها ، واحتواء الرمس ؛ ومضى كأن لم يكن بالأمس .

لك أن تبكى يا زينب ماتشائين ، وأن تسكبي على قبره دمعك السخين .

فابكى بمحمر الدموع وإنما تبكى العيون نظيرها بنضار

وانتدني سوء الحظ ونكد الطالع ، فقد اختطف الموت عمادك في الحياة ، وبجنتك من الكوارث ، وحافظ وجهك أن يريق مائه السؤال ، أو التكسب بوضع الأعمال .
 اللهم لا يراد لقضائك ، ولا معقب لحكمك ، ولا رحمة تداني رحمتك ،
 فقد حرمت زينب عائلتها وسندها في الحياة ، وفجعتها في أعز مخلوق عليها ، ولكنتك
 منحتها صبراً جميلاً ، وعزاء بتلك الريحانة التي أخذت تنمو وترعرع . فكانت
 سلواها وأملها ، فاستأنفت حياة الرضا والتسليم ، وخرجت تعمل في دور الأغنياء .
 ومضت السنون ، فكبرت عاتشة وجاوزت عامها السابع ، فرأت الأم أن
 تتخذها عوناً لها ، فألحقها بخدمة أسرة صالحة في المدينة . وكالتا إذا أرخى الليل
 سدوله تعودان إلى كوخهما ، فتشتم الأم بقرّب ابنتها ، وتتجاذبان الحديث .
 حتى يأخذ الكرى بمعاقد الأجفان ، فإذا ولي الليل الأدبار قامتا إلى عملهما ،
 وعادتا إلى سيرتهما الأولى .

الفصل الثاني

الوحش الإنساني

على بعد أميال من تلسان أخبية متاثرة ، تخالها إبلا حل بها الأعياء ،
 فأناخت في البيداء . سكنها جماعة من الأعراب ؛ لا يعرفون من الدين إلا اسمه ،
 ولا غرو ؛ إنهم أبناء الصحراء قد خلعت عليهم جفافها ، وأورثتهم خشوتها ،
 وصاغت قلوبهم من حجارته .
 كان من عادة هؤلاء القوم أن يفدوا إلى المدينة ، حاملين صوف أغنامهم ،
 أو ما حاكته نساؤهم ، لبيعوه في أسواقها ، وليشتروا ما قدروا عليه من خيراتها ،
 فإن أعجب أحدهم بما لم يستطع له شراء أخذه خلسة أو غصباً (والامن في
 هذه البلاد قد اضطرب ، والحق فيها لمن غلب) وكان من بينهم رجل يدعى
 سايما قد لبس جلد النمر ، وخلق من غير قلب ، وعاث في الأرض فساداً ، فكم
 أدمى من قلوب ، وقتت من أكباد ، وقرح من جفون . وفرق بين الولد وأبيه ،
 أو فضيلة التي تؤويه ، بخطفه وبيعه ؛ فقد كان يفد إلى المدينة ويسير في الطرقات ،

حتى إذا عن له صيد (وما صيده إلا البنون والبنات) نصب له شراكه. وألقى عليه جباله حتى يفوز به، فينقلب إلى أهله مسرورا.

بينما هو في إحدى جولاته، وقد خرجت عائشة مولية وجهها شطر الكوخ، تسير فرحة طروبا؛ تعلق نفسها بقرب لقاء أمها، فتذب من ناحية إلى أخرى وثبات العصفور المرح من غصن إلى غصن، في يوم من أيام الربيع الساحرة — إذ رآها سليم، فتنبت فيه غريزة الشر، ووجد فيها بضاعة غير مزجاة، ففكر ثم قدر، واستنبط الحيلة. وأعد عدته، ورسم خطته، فمشى عن كسب منها حتى عرف اسمها. ثم تقدم إليها وأخبرها أن أمها في زيارة لاهله، وقد طلبت منه أن يحضر لها عائشة، وتلا فريته بالحلوى قدمها إليها. فانخدعت المسكينة بقوله، ورأت ظاهره فيه الرحمة، ولم تدرك أن باطنه من قبله العذاب، ومضت معه، وقد جذبها بعذب حديثه، واستمالها بحلواه، إلى أن دنا من الصحراء، فتلقت حوله خائفاً يترقب، ولم يلبث أن عاد إليه آمنه لما رأى الطريق خالية، وانقض عليها واحتملها، وكنم فاهها. وعرفت منه الغدر وسوء القصد، فصارت تتلوى بين يديه، كما يتلوى الفرخ ينزع من عش أبويه، ولكنه أحاطها بذراعيه، وهددها إن لم تسكن إليه؛ فسكن جسمها، وتحركت عيناها، وانتحبت نجيب اليأس من الخلاص، وبكت بكاء المسافر لم يجد من فراق أهله المناص، ثم أنزلها تسير، فأسلست له القياد فزعا، وأعطته الزمام كرهاً، حتى وصل إلى خباته، وقد نال منهما التعب، وأعياهما المسير، فأمرها أن تنام فأطاعت، ولكن النوم لم يجد إلى عينها سبيلا. فباتت ساهدة الطرف، شاردة اللب.

ولما سل سيف الفجر من غمد الدجى نهضت من مرقدتها، فألفته يده راحلته، ويهي. زاده، فارتاعت وهوت على يده لثما وتقيلا، وتضرعت إليه أن يعيد إليها حررتها، ويردها إلى أمها. فما كان جوابه إلا أن اطم خدها، وتوعدها بالمزيد إن لم تعدل عن البكاء.

لك الويل من وغد أنيم، ولص لثيم. ألم تأخذك شفقة بهذه الصغيرة، ولم يلن لها قلبك، فكان كاللحجارة أو أشد قسوة، وإن من الحجارة لما يتفجر منه الأنهار، وإن منها لما يشقق فيخرج منه الماء، وإن منها لما يهبط من خشية الله.

استخذت المسكينة وانكشيت ، ثم ركب جملة ، وأزدها . وجد في السير حتى دخل مصر ، ونزل بإحدى قراها ، واتصل بجماعة من سراتها ، قد زين لهم ما هم فيه من جاه ونعمة أن يردوا الخُرْقَتَيْنِ ، فغرض عليهم عائشة ، فاشتروها بثمن بخس دراهم معدودات ، وتركها بينهم لا يلوى على شيء ، وسار حتى ابتلعه الصحراء . أما هي فقد تنفست الصعداء ؛ لما خلصت من البقاء في كنف ذلك الأعرابي ، وأدركت أن بعض الشر أهون من بعض ، ومكثت بين ظهرانيهم أياما ، ثم أهداها كبيرهم إلى صديق له في القاهرة ، فوجدت في منزله بعض العزاء .

الفصل الثالث

القلب المحطم

انتظرت زينب سويداء قلبها ، وفلذة كبدها ، فلم تعد (وليس ذلك من عادتها) فاضطربت ، وجرت إلى البيت الذي تشغل فيه عائشة فلم تجد لها ، فهامت على وجهها في الطرقات ، تسأل الغادى والرائح عنها ، فلم تقف لها على أثر ، فلما أعيأها المطاف عادت أدراجها ، والوساوس ملء فؤادها ، ودخلت كوخها ، تسأل جدرانها ، وتستنطق حيطانها ، عليها ترشدها إلى عائشة ، وهيأت هيأت ، فقد فر الذئب بالخل ، وخرج به وثوب الليل مسدول .

قضت ليلة نابعة ، لم تأو فيها إلى مضجع ، ولم يرقأ لها مدمع ، وأخذ الوهم يصورها عائشة في صور شتى ، فتارة تظنها قادمة إليها ، فتفتح ذراعيها لتضمها ، وما تضم إلا الأمل الضائع ، واليأس اللاذع . وتارة تزعم أنها تناديه من وراء الباب ، فتذهب إليه ، وترسل بصرها من خصاصه ، وتحبس أنفاسها ، فلا ترى إلا الحية ماثلة أمامها ، ولا تسمع إلا دقات قلبها ، وطورا تنوهم أن لينا قد انقض عليها ، وحملها إلى الجبل ، وأنشبت فيها مخالبه ، فيهاج لذلك فؤادها ، وتمزق أحشاؤها .

ما أطول ليالك يا زينب ! ما للصبح لم يتنفس ؟ أضل طريقه ؟ أم حبس عن الدنيا كما حبست عن عائشة ؟ بمثل ذلك كانت تحدث نفسها . فلما أخذ الفجر ينشر أعلامه ، وبدأ الليل يطوى صحفه ، ويخفي لآلئه في أصداف السماء . وانمحت

آيته ، وظهرت آية النهار مبصرة - عاود زينب أملها في العثور على ابتها ؛
فخرجت إلى السبل باحثة معولة ، فلم تترك بيتاً إلا طرقت ، ولا ماراً إلا استوقفت ،
وما زالت تنتقل من حيلة إلى حيلة ، وتميل ذات اليمين وذات الشمال ، حتى مال
ميزان النهار ، وانحدرت الشمس إلى مغربها ، فانحدرت هي إلى كوخها ، وقد قر
في نفسها أن عائشة لن تعود إليها .

لقد تجرعت زينب كأس الحزن حتى ثمالها ، وتقرحت من طول البكاء
جفونها ، وتفتت كبدها ، وتيقظ حزنها القديم ، وغدت مهیضة الجناح ، مكومة
الفؤاد ، ترى الأرض غير الأرض ، والسماء غير السماء ، فاتتهبها الأمراض ،
وأصبحت كخيال سار لولا أنها ما تينتها .

كانت لها جارة طيبة القلب ، عرفت أمرها ، ووقفت على ما أصابها ؛ فأخذت
تواسيها ، وتوثرها على نفسها ، فتقدم إليها بعض ما هي في حاجة إليه ، ولكن
زينب لم تطب لها الإقامة في تلك الديار ، التي أذاقها لباس الجوع والخوف ،
وسقيتها من كئوس العذاب ألوانا ؛ فعزمت على الرحيل منها ، عسى أن تجد في
الأرض التي تهبط فيها برداً وسلاماً ، يطفي نار أحشائها ، أو يخفف من لواج
أحزانها ؛ فخرجت مبكرة إلى فج من فجاج الصحراء ، فوجدت قافلة تتأهب
للمسير ، وتبغى وادي النيل . ففرست في وجوه القوم ، حتى وقع نظرها على
رجل توسمت فيه البر ، وتوقعت منه الخير ، فتوسلت إليه أن يحملها معه إلى
وجهته ، فيقرض الله قرضاً حسناً ، فيضاعفه له ، فرق الرجل لحالها ، وأركبها
راحلته ، وسارت سفن الصحراء باسم الله مجريها ومرساها .

الفصل الرابع

اللقاء

هبطت زينب أرض مصر ، وألقت عصاها ، واستقر بها النوى في القاهرة ،
وأخذت تستجدي الناس ، وتستندى الأكف ، ولكنها لم تكن بارعة في حرقها
الجديدة ؛ فراحت تبحث لها عن عمل يشبه عملها الأول ، فوفقت إلى أسرة كريمة ،

قد أسبغ الله عليها نعمة ظاهرة وباطنة ، وحباها الخيم العميم ، وجملها بالخلق
القويم ، وقد أخلصت زينب في خدمتهم ؛ فكافئوها بالحسنى وزيادة ، وعاملوها
معاملة الولي الحميم . ولولا وخزات الأسى التى تميز فى قلبها لفراق ابنتها ، من
غير أن تعرف لها مستقرا أو مقاما - لأحست ذلك النعيم ، الذى تنقلب فى أعطافه ،
ولا بتسمت لتلك الحياة الجديدة . ولكنها ما زالت تذكر عائشة ، وتذرف الدمع
مدرارا ، كلما خلت بنفسها .

ومر على مقدمها عام ، ولم يندمل جرح فؤادها ، ولم ينضب معين دموعها ؛
فى ذات يوم خرجت زينب لبعض شأنها ، فرأت فى الشارع فتاة زعمتها
عائشة ؛ نفخق فؤادها ، وهولت نحوها ، فلما دنت منها تبدل شكها يقينا ،
فهتفت باسمها ، فجفلت عائشة ، ثم عرفت الصوت بعد نكر ، فظفرت إلى أمها
وارتمت بين أحضانها ؛ نلو شهدتهما لرأيت جسمين اتحدا ، ولسمعت قلبين
خفقا ، وثرين نطقا بالقبل ؛ ووجدت عيوننا فاضت بدموع الفرح ، ياله من
منظر ساحر ، يعجز عن تصويره أمر المصورين !

لم تقو الأم على احتمال هذا السرور الذى باغتها . وأفعم قلبها ، نفرت مغشياً
عليها ، ثم أفاقت من غشيتها ، وأخذت يد ابنتها ، وسارت معها إلى الأسرة التى
آوتها ، فلما رأوها مشرقة الوجه ، وضاححة الجبين ، بسامة الثغر ، على غير عادتها ،
ومعها فتاة لا عهد لهم بها - أخذ منهم العجب كل مأخذ ، وتهاقوا عليها ، وأغراهم
حب الاطلاع أن يسألوها ، فأجابت : إن هذه ابنتها عائشة ، وقد عثرت عليها ،
فسألوا : ما خطبك يا عائشة ؟ قالت : خطفنى رجل من الأشقياء ، وخرج بى
إلى الصحراء ، ودخلنا بلاد النيل وباعنى من أحد الأثرياء ، فضمنى إلى خدمه ،
ثم وهبى لصاحب الهدوء عطف على زوجته ، وعاملتنى معاملة حسنة ، فسكنت
إليها ، ولكن لم أفر عن ذكراك يا أماء ، فهنا الجميع زينب ، وأبوا إلا أن يجعلوا
من هذا اللقاء عيداً ، فبيتوا وليمة عشاء ، ودعوا إليها الأصدقاء ، وسطروا على
باب المنزل بحروف وهاتجة الضياء :

وقد يجمع الله الشيتين بعد ما يظنان كل الظن أن لا تلاقيا ؟